تعدد الأغراض
من مقاييس المفاضلة بين الشعراء
في النقد القديم

الدكتور / حمود محمد الصميلي*
أستاذ مساعد - قسم البلاغة والنقد - كلية اللغة العربية

ملخص بحث

تعدد الأغراض مقياس من المقاييس التي يتفاضل بها الشعراء عند النقاد والقدماء وقد لاحظ النقاد أن بعض الشعراء لهم مقدرة كبيرة على تناول أي غرض من أغراض الشعر والإجادة فيه، وأن شعراء آخرين وقفت بهم مقدرتهم عند غرض معين من أغراض الشعر ولم يستطيعوا مجاوزته إلى غيره من الأغراض الأخرى كوقوف عمر بن أبي ربيعة وجميل بثينة عند شعر الغزل، ووقوف الخنساء عند غرض الرثاء، كما لاحظوا أن أولئك الذين تعددت أغراضهم نالوا حظوة كبيرة وتربعوا على صدارة الشعراء كالأعشى وامرئ القيس وجرير والفرزدق والأخطل بينما بقي أصحاب الغرض الواحد في مكان متدن مهما كانت إجادتهم في غرضهم الوحيد.

---

* انتقل إلى رحمة الله تعالى في شهر رجب ١٤٢٤هـ.

كذلك أبرز البحث أن الأغراض الشعرية تتفاوت في قيمتها في ميزان النقد ويأتي المدح والهجاء في مقدمة الأغراض ذات القيمة الكبيرة في المفاضلة فذو الرمة شاعر جيد ولكنه تأخر " لتجافيه عن المدح والهجاء" كما يقول الفرزدق.

كما أن فن النقائض الذي علا دوره في العصر الأموي تتميز القصيدة فيه بتناولها لمجموعة من الأغراض كالغزل والمدح والفخر والهجاء ولذلك لم يستطع إجادته إلا مجموعة من الشعراء الفحول كجرير و الفرزدق والأخطل والراعي ولذلك عد هؤلاء الشعراء الطبقة المقدمة في العصر الأموي فلا بد من ملاحظة العلاقة بين تعدد الأغراض والنقائض وبين الفحولة والتقدم الشعري.

* * *

مقدمة:

بدأ كثير من الدارسين المعاصرين يميلون إلى دراسة مصطلحات النقد العربي في بحوث مستقلة ورسائل جامعية يتناول بعضها مجموعة من المصطلحات وبعضها يتناول مصطلحاً واحداً بالدراسة والتتبع وهذا يعد تطوراً إيجابياً في دراسات النقد لأن مصطلحات النقد القديم لم تحض بمثل هذه الدراسات المتخصصة .

وفي هذا الإطار رأيت أن أتناول بالدراسة "تعدد الأغراض الشعرية " باعتباره مقياسا هاما من مقاييس المفاضلة بين الشعراء في النقد القديم لأساهم في إبراز دراسة مصطلحات النقد ومقاييسه وأضع لبنة في هذا المجال ضمن بناء قد ظهر للعيان بعض لبناته وستظهر في المستقبل لبناته الأخرى إن شاء الله .

من مقاييس تقدم الشاعر على غيره عند المفاضلة تعدد الأغراض الشعرية عنده،

فمن كثرت أغراضه بين مدح وهجاء وفخر ووصف وغزل يتقدم على غيره من أصحاب الأغراض المحدودة، ولعلهم يعدون ذلك دلالة على الاقتدار على قول الشعر وامتلاك ناصية البيان وتصريفه حسبما يريد الشاعر وتبعا لمتغيرات الأحوال واختلاف المواقف، وهم بهذا كأنهم يعتبرون الشعر حرفة ومهارة ربما وصل فيها الشاعر إلى الحد الذي تكون فيه سهلة طيّعة يسيرها في الطريق الذي يريد دون أن تتأبّى عليه في بعض الأغراض وكأن هذا النوع من الشعراء قد اتخذ الشعر مطية يمتطيها متى أراد ويوجهها أي وجهة قصد فعندما سئل جرير عن امرئ القيس، قال "اتخذ الخبيث الشعر نعلين"[1] وهذه العبارة تشير إلى سيطرة امرئ القيس على الشعر متى شاء حتى اصبح مملوكا له وسهلا عليه مثلما يسهل عليه لبس نعليه. ولعل جريراً يريد أن يصل بهذا إلى الثناء على نفسه لأنه من الشعراء الذين تعددت أغراضهم وامتلكوا خاصية الشعر يوجهونه إلى حيث شاءوا لأنه من هذا الصنف من الشعراء الذين تعددت أغراضهم وامتلكوا القدرة على أن يقولوا الشعر في أي غرض شاءوا وسهل عليه الشعر حتى قيل بأنه يغرف من بحر.

ويؤيده هذا الخبر عن عكرمة بن جرير قال "قلت لأبي: يا أبه،من أشعر الناس ؟ قال: أعن أهل الجاهلية تسألني أم عن أهل الإسلام ؟ قلت : ما أردت إلا الإسلام، فإذا ذكرت الجاهلية فأخبرني عن أهلها : قال زهير شاعرها . قال قلت فالإسلام ؟ قال الفرزدق نبعة الشعر. قلت :فالاخطل ؟ قال: يجيد مدح الملوك ويصيب صفة الخمر : قلت فما تركت لنفسك ؟ قال: دعني فإني نحرت الشعر نحراً"[2]

"إن جريراً هنا وإن كان يعطي زهيراً والفرزدق والأخطل مكانتهم الشعرية إلا أنه يحتفظ لنفسه بالتفوق لأن سيطرته على الشعر تفوق ما قاله عن الآخرين، ولذلك يعلق

محمود شاكر على قول جرير "نحرت الشعر نحراً" بقوله : يريد كأنه قتل الشعر استمكاناً منه واقتدارا عليه " [٣]

أما الأخطل فلا يجيد إلا غرضين اثنين هما مدح الملوك، وصفة الخمر دون غيرهما من الأغراض وهذا ما جعله أقل مستوى من الفرزدق وجرير.ولعل هذا ما جعل البعض يرى أن الأخطل لم يكن مثلهما، ولكن تغلب تعصبت له وأفرطت فيه ولعله أيضاً يقدم الفرزدق على الأخطل عندما وصفه بنبعة الشعر دون تحديده بغرض معين مما يشير إلى كثرة أغراضه بينما حدد الأخطل بمدح الملوك وصفة الخمر .

وهذا الاقتدار والتمكن هو الذي جعل الشاعر ينتقل من الغرض الشعري إلى نقيضه دون عناء، وهذه ميزة استحق بها أصحابها أن ينالوا مكانة رفيعة بين أقرانهم بينما نجد بعض الشعراء يجيد في غرض شعري واحد ولا يستطيع أن يقول في غيره ولذلك يقول ابن قتيبة: "والشعراء أيضاً في الطبع مختلفون: منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء . ومنهم من يتيسر له المراثي ويتعذر عليه الغزل" [٤] حتى إن اقتصار الشاعر على غرض واحد أصبح تهمة تغض من قيمته الشعرية ولذلك يتبرأ العجاج من العجز عن الهجاء . أورد بن قتيبة أنه "قيل للعجاج :إنك لا تحسن الهجاء ؟ فقال : إن لنا أخلاقا تمنعنا من أن نظلم وأحسابنا تمنعنا من أن نظلم، وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم؟" [٥]

ويبدو أن حجة العجاج واهية فليس المدح بناءً وليس الهجاء هدماً، بل هي طبائع فلكل شاعر طبع مختلف، ولذلك يرد ابن قتيبة على العجاج بقوله :"وليس هذا كما ذكر العجاج، ولا المثل الذي ضربه للهجاء والمديح بشكل، لأن المديح بناء والهجاء بناء وليس كل بانٍ بضرب بانياً بغيره . ونحن نجد ذلك في أشعارهم كثيراً . فهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيهاً وأجودهم تشبيباً وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية، فإذا صار إلى

المديح والهجاء خانه الطبع وذاك أخره عن الفحول فقالوا في شعره : أبعار غزلان ونقط عروس وكان الفرزدق زير نساء وصاحب غزل، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب . وكان جرير عفيفا عزهاة [٦] عن النساء وهو مع ذلك أحسن الناس تشبيباً" [٧] .

وما رد به على العجاج يرد به على نصيب فلقد أدرك معاصروه أنه لايحسن الهجاء ولكنه رفض الإتام الموجه إليه بحجة واهية فعندما قيل له:" إن الناس يزعمون انك لا تحسن أن تجو. فضحك، ثم قال: أفتراهم يقولون : إني لا أحسن أن أمدح ؟ أفما تراني أحسن أن أجعل مكان (عافاك الله) (أخزاك الله) " [٨] .

وطبيعة نصيب المسالمة الهادئة يبدو أنا ليست مهيأة للهجاء، فقد كان مولى وتعود حياة الصبر والاستكانة، ومثل هذه الشخصية لاتستطيع منازلة شعراء الهجاء من الأشراف وذوي الحظوة كالفرزدق وغيره .

والواقع أن نصيبا يحتج بحجة غير سديدة فليس المدح عافاك الله، وليس الهجاء أخزاك الله وإنما للمدح أصوله وقواعده التي تختلف عن أصول الهجاء ولكن نصيباً وغيره يعلمون قيمة الشاعر الذي يحسن مختلف ضروب الشعر عند الناس فأصبح بعضهم يدعي أنه يجيد الجميع طمعاً منه أن ينال مكانة الفحول الذين يحسنون مختلف الأغراض والفنون وفي مقدمتها المدح والهجاء ويؤكد ذلك هذا الحوار الذي دار بين الفرزدق وذي الرمة ؛ فقد مر الفرزدق بذي الرمة وهو ينشد :

أمنزلتي مي سلامٌ عليكُمَا هل الأزمن اللائي مضينَ رواجعُ

فوقف حتى فرغ منها، فقال: كيف ترى يا أبا فراس ؟ قال: أرى خيراً . قال فمالي لا أعد في الفحول ؟ قال: يمنعك من ذلك صفة الصحاري وأبعار الإبل" [٩] .

إن ذا الرمة هنا يتمنى مكانة الفحول من الشعراء، يتمنى مكانة جرير والفرزدق والأخطل ولكنه عاجز عن المدح والهجاء وعاجز أن يخرج من بيئة البادية والاهتمام بوصفها وتصويرها، ولقد برع في ذلك كثيراً ولكن الفحولة لا تعطى إلا لمن يحسن ضروباً من الشعر متعددة، وعلى رأسها المدح والهجاء، ولذلك وردت للخبر رواية أخرى هي أن الفرزدق قال له: " لتجافيك عن المدح والهجاء واقتصارك على الرسوم والديار" [١٠] .

إن الفرزدق يعرف قيمة شعر ذي الرمة، وأنه جيد ويستحق أن يثني عليه.وذو الرمة يعرف ذلك تماماً، لكن ذا الرمة يجهل السبب في تأخره على الرغم من شهادة الفرزدق لشعره بالجودة وأنه يصل في جودته إلى درجة الفحولة، لكن الفرزدق يعلم السبب الذي يجهله ذو الرمة ألا وهو الاقتصار على غرض واحد وعدم التصرف في جميع الفنون و الأغراض الشعرية التي ترضي جميع الأذواق وعلى رأسها المدح والهجاء.

إن المدح يحظى بأهمية كبيرة لارتباطه بالخلفاء وقصورهم وما ينتشر من أخبارها وجوائزها. وأما الهجاء فقد رفعت من أهميته أسواق الشعر في المربد والكناسة والجمهور الكبير من المتابعين للشعراء في هذه الأسواق وما يترتب عليه من فوز بعض الشعراء وهزيمة آخرين وانعكاس ذلك على قبائل الشعراء ولقد أصاب الفرزدق كبد الحقيقة عن ذي الرمة فقد روي عن البطين أنه سئل : "أكان ذو الرمة شاعراً متقدماً؟ فقال البطين: أجمع العلماء بالشعر على أن الشعر وضع على أربعة أركان: مدح رافع، أو هجاء واضع، أو تشبيه مصيب، أو فخر سامق؛ وهذا كله مجموع في جرير والفرزدق والأخطل فأما ذو الرمة فما أحسن قط أن يمدح، ولا أحسن أن يهجو، ولا أحسن أن يفخر، يقع في هذا كله دوناً، وإنما يحسن في التشبيه فهو ربع شاعر"[١٠].

من هذا النص وأمثاله ندرك أن الفحولة والتقدم لا تعطى إلا لمن يحسن أكبر عدد من أغراض الشعر المعروفة دون تقصير في واحد منها وعلى رأسها المديح والهجاء والفخر والوصف وأن من يجيد أقل عدد منها مهما بلغت إجادته فيه لا يعد من الفحول مثلما هو الحال مع ذي الرمة وأنه كلما زاد عدد الأغراض الشعرية لدى الشاعر تقدم على قرنائه، فمن قدم جريراً على الفرزدق فباعتبار أن جريراً يحسن ضروباً من الشعر لا يحسنها الفرزدق، فعن ابن سلام قال:" وسألت بشاراً العقيلي عن الثلاثة ؛ فقال: لم يكن الأخطل مثلهما، ولكن ربيعة تعصبت له، وأفرطت فيه. قلت: فجرير والفرزدق؟ قال: كان جرير يحسن ضروباً من الشعر لا يحسنها الفرزدق. وفضل جريراً عليه"[11] فبشار يلتقي هنا مع جرير في تفضيل الفرزدق على الأخطل عندما قرن الفرزدق بجرير بينما جعل الأخطل دونهما

وفي رواية "كان لجرير ضروب من الشعر ما يحسنها الفرزدق، ولقد ماتت النوار فناح عليها النساء بشعر جرير"[12]

إن انفراد جرير بالنسيب والرثاء دون الفرزدق جعله في منزلة أعلى من الفرزدق وجعله يتقدم عليه عند كثير من متابعي الحركة الشعرية في عصرهما وبعده وكان الفرزدق يتمنى أن يجيد النسيب مثلما يجيده جرير، ولذلك كان يقول عن جرير:"ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعري، وما أحوجني إلى رقة شعره لما ترون"[13]

وهذا يؤكد أن طبيعة الفرزدق لا تحسن الرقة في الشعر حتى وإن كان يتمناه، وأن طبيعة جرير تتناسب مع الغزل على الرغم من عفته وبعده عن مخالطة النساء غير أزواجه

وكان جريرٌ يعرف من نفسه اقتداره على شعر الغزل، ولذلك يقول :"لولا ما

شغلني من هذه الكلاب لشببت تشبيباً تحن منه العجوز إلى شبابها كما تحن الناب إلى سقبها"[١٤]

التعليق:

إن الفرزدق يتمنى أن يجيد الغزل مثلما يجيد الفخر ويتناسب خلقه الذي لا يتورع عن مخالطة النساء الأجنبيات مع شعر الغزل ولكن طبيعته غير قادرة على قول الغزل على الرغم من شغف نفسه به، ولذلك نجده يعلن أنه يريد الغزل ويحسد شعراء الغزل كعمر بن أبي ربيعة على مقدرتهم في شعر الغزل التي لا يستطيعها هو فعندما سمع بعض شعر عمر بن أبي ربيعة في الغزل قال : "هذا الذي أرادته الشعراء فأخطأته وبكت على الديار"[١٥] ويقول عن جرير " ما أحوجني إلى رقة شعره "[١٦]

وهنا لا بد لنا من تناول بعض الشعراء الذين تعددت أغراضهم للوقوف من كثب على أسباب فحولتهم والتأكد من تنوع أغراضهم ومدى صحة تقديم النقاد القدماء لهم على غيرهم وأهمهم الأعشى من الجاهلية وشعراء النقائض في العصر الأموي . وبعض الشعراء الغزلين ككثير عزة .

فالأعشى من أولئك الشعراء اللذين تبوأوا مكانة مرموقة وطبقة رفيعة بين نظرائهم بسبب تعدد أغراضهم فهو يعد في الطبقة الأولى بين شعراء الجاهلية مع امرئ القيس والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى.ولعل أهم سبب أوصله إلى هذه المكانة العالية تعدد أغراضه الشعرية أما شعره فليس له قوة وجزالة نظرائه الثلاثة الآخرين يقول شارح ديوانه عن شعره بأنه "لا يخلوا من هنات أبرزها تكرار بعض المعاني والصور حتى إن بعضها أعيد بلفظه مراراً "[١٧] وقال عنه ابن سلام : "ولم يكن له مع ذلك بيت نادر على أفواه الناس كأبيات أصحابه"[١٨] وليس له تميز على أي شاعر من شعراء عصره فلولا تعدد أغراضه الشعرية وقدرته على التنقل في جميع الأغراض لما كانت له هذه المكانة التي جعلته في الطبقة الأولى

من شعراء عصره، حتى إن الأصمعي لم يعده من فحول الشعراء فعندما سئل عنه " أ فحل هو؟ قال ليس بفحل" [١٩] ولكن الأصمعي يعترف بأن بعض النقاد يقدمون الأعشى على جميع الشعراء لهذا السبب وهو تعدد أغراضه وتنوع قوافيه فهو يقول "إن أهل الكوفة لا يقدمون على الأعشى أحداً. قال وكان خلف لا يقدم عليه أحداً قال أبو حاتم لأنه قد قال في كل عروضٍ وركبٍ كل قافية"[٢٠]

وقد عده أبو عمرو بن العلاء من الشعراء المغلبين فعن" أبي عبيدة قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: أربعة من كبار الشعراء غلبوا بالكلام منهم الأعشى هجا ابن عمه جهنام فقال:

دعوتُ خليلي مسحلاً ودعا لهُ جهنامَ جدعاً للحمار المصلمِ
فما بوأ الرحمنُ بيتَكَ بالعلى بأكتافِ شرقي المصلى المحرمِ

قال جهنام: لكن فناؤك به أوسع يا أبا بصير. فغلبه "٢١

وقال أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي" من الأشعار الغثة الألفاظ الباردة المعاني، المتكلفة النسج القلقة القوافي المضادة للأشعار المختارة قول الأعشى:

بانتْ سعادُ وأمسى حبلُها انقطعا واحتلتِ الغمْرَ فالجدين فالقرعا

لاتسلم منها خمسة أبيات"٢٢

وقد أشار ابن طبأطبا إلى ذكر قصائد ومعاني سيئة من شعر الأعشى قال بأنها تصدى الفهم وتورث الغم ٢٣

ومما عيب على الأعشى استعماله الألفاظ الأعجمية في شعره [٢٤]

فما الذي جعل الأعشى يحتل هذه المكانة مع وجود هذه العيوب الكثيرة ؟لاشك

أن تعدد أغراضه كان من أسباب ذلك، ولذلك يقول أبو عبيدة " من قدم الأعشى يحتج بكثرة طواله الجياد وتصرفه في المديح والهجاء وسائر فنون الشعر، وليس ذلك لغيره"[٢٥] وعبارة " وليس ذلك لغيره " تدل دلالة واضحة على تفرد الأعشى بهذه الميزة التي جعلته من كبار الشعراء المقدمين .

لقد دل نص أبي عبيدة على أن الأعشى يجيد فنوناً كثيرة من الشعر على رأسها المديح والهجاء وهذان الغرضان هما من أول الأغراض التي ترفع صاحبها إلى منزلة الفحولة .

إن هذا القول واضح الدلالة على أن من يقدم الأعشى ينظر لتصرفه في فنون الشعر وهي ميزة يمتاز بها الأعشى على غيره ولذلك يربط بعض النقاد بينه وبين جرير باعتبارهما أشعر الشعراء في الجاهلية والإسلام ففي الأغاني عن يحي بن الجون العبدي راوية بشار، قال "نحن حاكة الشعر في الجاهلية والإسلام ونحن أعلم الناس به أعشى بني قيس بن ثعلبة أستاذ الشعراء في الجاهلية وجرير بن الخطفى أستاذهم في الإسلام "[٢٦] إن المقياس الذي اعتمد عليه هذا الناقد في تقديم جرير والأعشى إنما هو تعدد الأغراض فالشاعران يتشابهان في هذه المزية وسنجد هذا المقياس عند بشار بن برد عندما يفضل جريراً على قرنائه من شعراء العصر الأموي الكبار لأنه تعددت أغراضه وكان يحسن فنوناً من الشعر لا يحسنها الفرزدق ولا الأخطل[٢٧].

كان أبو عمرو يضخم من شأن الأعشى، ويعظم محله، ويقول :" شاعر مجيد كثير الأعاريض والافتنان وإذا سئل عنه وعن لبيد قال : لبيد رجل صالح والأعشى رجل شاعر" [٢٨] .

وقال أبو عمرو بن العلاء عن الأعشى "مثله مثل البازي يضرب كبير الطير

وصغيره، ويقول نظيره في الإسلام جرير"[٢٩].

سئل خلف الأحمر عن الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين :" أيهم أعجب إليك يا أبا محرز؟ قال: الأعشى"[٣٠] قال راوي الخبر " أظنه قال: كان أجمعهم"[٣١].

قال المفضل: "من زعم أن أحداً أشعر من الأعشى فليس يعرف شعراً وإنما يفعل ذلك بالهوى والميل"[٣٢].

قال عنه ابن شرف القيرواني:" ولا كميمون بن قيس شاعر المدح والهجاء والياس والرجاء ؛ والتصرف في الفنون، والسعي في السهول والحزون"[٣٣].

إن ابن شرف هنا يجعل غرضي المديح والهجاء من أول أغراض الأعشى التي نال بها مكانته الرفيعة بين الشعراء قارناً إياهما بمردودهما الاجتماعي والنفسي عندما عطف عليهما اليأس والرجاء الناتج عنهما، ثم توسع في وصف الأعشى بامتلاكه التصرف في الفنون الشعرية المختلفة، والقدرة على القول في الغرض الشعري ونقيضه عندما قال والتصرف في السهول والحزون . وهذا إدراك لما أجمع عليه غالبية نقاد الأعشى الذين علموا منه صفة التصرف في شتى الفنون والأغراض الشعرية وبذلك استحق مكانته الشعرية في الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية .

وباستعراض ديوان الأعشى نجده يطرق أغراضاً كثيرة من الشعر لم يتسن لأحد من معاصريه مثلها ونشير إلى قصيدة واحدة من كل غرض شعري ونكتفي بذكر مطلعها وبيان الغرض الشعري الذي قيلت فيه .

ففي الفخر قصيدته التي مطلعها :

أجبيرُ هلْ لأسيركمْ من فادِ   أم هلْ لطالبِ شقةٍ من زاد [٣٤]

وفي الاعتذار قصيدته التي مطلعها :

أعلقمُ قدْ صيرتْني الأمورُ   إليكَ وما كان لي منكصُ [٣٥]

وفي الشوق إلى قومه قصيدته التي مطلعها :

قطع الودادَ والصفاءَ الفراقُ   واشتياقاً إذا الحدوجُ تساقُ [٣٦]

وقال في الغزل قصيدته التي مطلعها :

نام الخلي وبت الليلَ مرتفقا   أرعى النجومَ عميداً مثبتاً أرقا [٣٧]

وفي المدح قصيدته التي مطلعها :

ألم خيالٌ من قتيلةَ بعدما   وهى حبلُها من حبلنا فتصرمَا [٣٨]

وفي العتاب قصيدته التي مطلعها :

يا لقيسٍ لما لقينا العاما   أ لعبدٍ أعراضنا أمْ علاما [٣٩]

قالها في عتاب أبناء عمومته بني عبدان بن قيس بن ثعلبة .

وفي الهجاء قصيدته التي مطلعها :

ألا مَنْ مبلغٌ عني حُريثاً   مغلغلةً أحانَ أم ازدرانا [٤٠]

أما الخمريات فهو أول شاعر عربي اشتهر بوصفها والتغني بها، وهو من أول من كان يولع بشربها ويضحي بمصالح مهمة من أجلها وله فيها بيته المشهور الذي أولع به أبو نواس الشاعر العباسي المعروف وأخذ معناه في بيت من شعره. أما بيت الأعشى فهو قوله :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ   وأخرى تداويتُ منها بِهَا

وأما بيت أبي نواس المتأثر بمعناه فهو قوله :

دعْ عنكَ لومي فإن اللومَ إغــراءُ ودلوني بالتي كانتْ هي الداءُ

هذه بعض أغراض الأعشى الشعرية وهي كثيرة كما هو ملاحظ وقد اقتصرت على ذكر مطلع قصيدة واحدة لكل غرض ولو استقصيت لطال الكلام، حاولت من خلالها تتبع مقالة النقاد القدامى بأن الذي أعطى الأعشى هذه المكانة هو تعدد أغراضه الشعرية ووجدت الأمر بعد الدراسة والتتبع كما قالوا.

قال بعض الباحثين "لقد برع في أكثر من غرض وترك شعراً جيداً يتضمن فنوناً شتى "[٤١] .

لقد استطاع الأعشى أن يتخذ الشعر حرفة يوليها كل همه ويقيد من أجلها نفسه للوصول فيها إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من خدمتها والشهرة فيها حتى قال بيته المشهور الذي يدل على حبس نفسه على مهنة الشعر في بيته حتى برع فيها كل البراعة وتنقل بين أغراضها في يسر وسهولة وهو قوله:

وقيــدني الشــعرُ في بيتــهِ كما قيدَ الآسراتُ الحمارا [٤٢]

كما اتخذ الشعر متجراً عند الملوك وذوي المال والجاه، وسافر من أجله كثيراً[٤٣] ونال بسببه مكانةً مرموقةً بين الناس وخاصة المديح والهجاء اللذين رفع بما أقواماً وحط بما أقواماً آخرين مما أكسبه مكانته المميزة التي وصل إليها .

وشعر النقائض مبني على مدح الشيء ونقيضه وشامل لشتى الأغراض فجرير والفرزدق والأخطل يعدّون من أهم شعراء النقائض بل هم الوحيدون المبرزون في النقائض

أما الآخرون كالبعيث المجاشعي والراعي النميري فلم يثبتوا طويلاً وتخلوا عن ذلك في أول الطريق. والناظر في قصائد النقائض يجد أن القصيدة تتوفر فيها معظم أغراض الشعر، تبدأ بالغزل أو الأطلال أو وصف الخمر ثم المديح لخلفاء وأمراء بني أمية ثم الفخر ثم هجاء الخصوم كل ذلك نجده مثلاً في قصيدة:

خف القطين فراحوا منكَ أو بكروا وأزعجتهمْ نوىً في صرفِهَا غُيَر [٤٤]

للأخطل ونقيضتها لجرير وأغلب قصائد النقائض.

يقول شوقي ضيف "أصبحت النقيضة لا تحوي فخراً وهجاءً فحسب كما كان الشأن في القديم، بل أخذت في بعض قصائدها على الأقل تحوي مديحاً وسياسة عصرية ويقدم الشاعر لذلك كله ببكاء الأطلال ووصف رحلته في الصحراء، وقد يضيف الأخطل نعتاً للخمر، وبذلك تشتمل بعض نقائضه على جل فنون الشعر التي عرفت حينئذٍ"[٤٥]

ثم يجعل شوقي ضيف ذلك علة لتقدم شعراء النقائض واعتبارهم أكبر شعراء عصرهم وكونهم فحولاً فيقول:"ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لماذا عُد جرير والأخطل شاعرين كبيرين في هذا العصر، فقد نهضا بهذا الفن الجديد وكان فناً صعباً، إذ كان معقداً هذا التعقيد. لم يعد الهجاء بيتين أو أبياتاً قليلة تسب بها قبيلة أخرى، بل أصبح قصائد طويلة تعتمد في طولها على درس عميق للحياة الجاهلية وما كان بين القبائل العربية فيها من خصومات، كما تعتمد على درس الحياة الإسلامية الحديثة وما طرأ عليها من ظروف سياسية" [٤٦]

وبذلك نعرف لماذا تقدم شعراء النقائض على غيرهم واستحقوا الفحولة.

وكان الوقت المعطى لقصيدة النقيضة على قدر المهمة والمشقة التي ينالها من

مكابدتنا وكذلك الجائزة المعطاة لها، فقد ذكر الأخطل أنه كان يمكث في بعض نقائضه سنة كاملة فعن "أبي عبيدة قال: قال الأخطل لعبد الملك بن مروان: أيزعم ابن المراغة أنه بلغ مدحتك في ثلاثة أيام وقد أفنيت بمدحك في قصيدة حولاً ما بلغت كل الذي أردت؟ فقال له عبد الملك: فأنشدني، فأنشده:

خَف القطينُ فراحوا منكَ أو بكروا "[٤٧]

إن قصيدة يمكث فيها صاحبها حولاً كاملاً لا بد أن تكون طويلة ومتعددة الأغراض بين مدح وفخر وهجاء ونسيب ولا تجتمع كل هذه الأغراض إلا في قصائد النقائض وقصيدة الأخطل من شعر النقائض شملت كل هذه الأغراض وطالت حتى وصلت خمسة وثمانين بيتاً بينما قصيدة جرير التي قصدها الأخطل والتي مكث فيها ثلاثة أيام فقط هي التي مطلعها :

أتصحو أمْ فؤادكَ غيرُ صاحِ عشيةَ هم صحبكَ بالرواحِ [٤٨]

وهي لم تكن من النقائض بل مدح لعبد الملك وطلب لنواله وهي اثنان وعشرون بيتاً فقط، أما قصيدة جرير التي توازي قصيدة الأخطل "خف القطين....." والتي يمكن مقارنتها بها فهي نقيضتها التي على وزنها ورويها وقافيتها والتي مطلعها :

قل للديارِ:سقى أطلالكِ المطرُ قد هجتِ شوقاً وماذا تنفعُ الذكرُ[٤٩]

وهي ستة وستون بيتاً تضمنت بكاءً على الأطلال وغزلاً وفخراً وهجاءً ولم تكن بأقل من مستوى قصيدة الأخطل.

وهكذا نرى أن المديح يكون جزءاً من قصائد النقائض في كثير منها، مثلما هو في قصيدة الأخطل وكان يتبادر إلى الذهن أن النقائض غزل وفخر وحسب، وعلى قدر جودة

المديح الذي فيها كانت الجائزة المعطاة لها فقد روي أن عبد الملك عند إنشادها كان " يتطاول لها، ثم قال: ويحك يا أخطل ! أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب؟ قال: أكتفي بقول أمير المؤمنين. وأمر لـه بجفنة كانت بين يديه فملئت دراهم وألقى عليه خلعاً، وخرج به مولى لعبد الملك على الناس يقول: هذا شاعر أمير المؤمنين، هذا أشعر العرب" [٥٠].

ومن هنا نعرف لماذا تقدم شعراء النقائض على غيرهم من الشعراء وكانوا هم الطبقة الأولى من شعراء عصر بني أمية أو على الأقل نضع أيدينا على سبب من أسباب تقدمهم ألا وهو تعدد الأغراض وتنوعها الذي تشتمل عليه النقائض .

قال الدكتور محمد مصطفى هدارة عن النقائض "إن لها جانباً فنياً أصيلاً إذ يلجأ الشاعر فيها إلى فنون من القول كالنسيب ووصف الديار والمديح والفخر ولا يقصرها على موضوع المناظرة في تعداد مفاخر قبيلته ومخازي القبيلة الأخرى، وإلا صارت النقائض شعراً تعليمياً يتضمن أيام العرب ووقائعهم فحسب...ولا يقتصر ما في النقائض من جانب فني على تعدد موضوعاتها، وإنما يرتبط ذلك أساساً بالطبيعة الفنية لكل شاعر وبصنعته في التصوير وإحساسه باللفظ وبراعته في صوغ المعنى "[٥١] .

ومن المعروف أن النقد القديم يعطي التميز والأهمية الكبرى للشاعر الذي يجيد في أكثر الفنون والأغراض ولا يأبه بأصحاب الأغراض المحددة [٥٢]

ومن الملاحظ أن شعراء النقائض هم أصحاب الحضور الأوسع في بلاط الخلفاء والأمراء والولاة لإنشاد المديح،وهم أيضاً سادة الأسواق الأدبية في المربد والكناسة لإنشاد شعر الهجاء ومناصرة قبائلهم واستقطاب جماهير الشعر من عامة الناس على مختلف ثقافاتهم ومستوياتهم الاجتماعية .

ولكن إذا كان تعدد الأغراض يبلغ بصاحبه درجة الفحولة والتقدم على الأقران عند التقييم والمفاضلة ويستر كثيراً من معايبه كما رأينا عند الأعشى فما قيمة التخصص بغرض معين من أغراض الشعر والإجادة فيه والإخلاص لـه .

من الملاحظ أن تعدد الأغراض يعني القدرة الشعرية وامتلاك أدوات الشعر ومطاوعته في كل حين حتى يصبح حرفة يجيدها صاحبها وتواتيه القريحة فيها متى شاء وفي أي غرض شاء، بينما التخصص الشعري هو سيطرة غرض واحد على الشاعر يجيد فيه ويصدق مع نفسه في شعره ولا يستطيع الخروج عنه لغيره كتخصص الخنساء بالرثاء وتخصص عمر بن أبي ربيعة بالغزل، فهل يحسب للشاعر الذي تخصص بغرض واحد إجادته في غرضه وإخلاصه له وصدقه فيه فيقارن بأصحاب الأغراض المتعددة ويساويهم عند المفاضلة لقد قدم النابغة الذبياني الأعشى صاحب الأغراض المتعددة على الخنساء صاحبة الغرض الواحد، ولم تحسب الخنساء في الطبقات المتقدمة من الشعراء الجاهليين أو المخضرمين عند جميع النقاد على الرغم من إجادتها في غرضها الوحيد شعر الرثاء، ولم يعد عمر بن أبي ربيعة في مقدمات طبقات الإسلاميين على الرغم من جودة شعره في الغزل جودة شهد له بها الكثير .

وقدم ابن سلام في طبقاته كثير عزة صاحب الأغراض المتعددة على أستاذه جميل صاحب الغرض الواحد .

فقد جعل ابن سلام كثير عزة في الطبقة الثانية من الشعراء الإسلاميين بينما جعل جميل بثينة في الطبقة السادسة وهذه مساحة واسعة بين الشاعرين و المعروف أن كثيراً كان راوية جميل بثينة وهو يعترف بأنه من جميل تعلم الشعر الذي تدل الدلائل على أنه يقصد به الغزل بينما أغراضه الأخرى كانت من ذاته أو من شعراء آخرين يجيدون تلك الأغراض كالمدح والهجاء و الوصف وغيرها فعن الأصمعي عن أبي الزناد قال :"كان كثّير راوية جميل وكان يقدمه على نفسه ويجعله إماماً "، وإذا سئل عنه قال " وهل علم الله عز وجل ما تسمعون إلا منه" [٥٣] وكان عندما يسأل عنه يقول "وهل وطأ لنا النسب إلا جميل "[٥٤]

وكان يسرق بعض أبيات الغزل من جميل يقول د/حسين نصار : " والصلة بين كثير وجميل معروفة مشهورة فقد كان راوية لـه معجباً بشعره محتذياً لـه وسارقا لبعض أبياته" [٥٥] .

إذن ما الذي جعل كثير عزة في هذا المكان المتقدم عند ابن سلام وتأخر جميل الذي يعترف كثير أنه تلميذه في الغزل .

لاشك أن تعدد الأغراض كان وراء ذلك التقديم ومن المعروف أن كثيراً كان متعدد الأغراض وكان المدح وهو من الأغراض الهامة جدّاً في رفع مكانة الشعراء كان كثير يجيده ويمدح كثيراً من خلفاء بني أمية الذين قربوه وأكرموه ورفعوا مكانه بسببه حتى ضارع في المديح جرير والفرزدق والأخطل .

أما جميل فقد بقي متأخراً عن طبقة كثير لاقتصاره على الغزل العذري وحده قال شارح ديوانه " ويتضح من النظرة العجلى إلى الديوان أن معظمه من الغزل ببثينة غير مقطوعات تعد على أصابع اليد الواحدة في الهجاء والفخر، بل نستطيع أن نعد هذا الهجاء هجاءً غزلياً لأن الغزل كان السبب فيه "[٥٦] .

وبذا نستطيع أن نقول إن الاقتصار على غرض واحد مهما برع فيه صاحبه لا يوصله إلى منزلة صاحب الأغراض المتعددة .

ونكتفي بوقفة على موقف النقاد القدماء من عمر بن أبي ربيعة ومكانته وهل استحق الفحولة وعُدّ في الطبقات المتقدمة من شعراء العصر الأموي لأنه أجاد في غرضه الوحيد شعر الغزل أم أن للفحولة مقاييس أخرى غير مجرد الإجادة في غرض واحد ولقد اعترف لعمر بن أبي ربيعة كثيرمن البصراء بالشعر في زمنه بأنه شاعر مجيد فما كانت العرب تقر لقريش بالشعر حتى نبغ فيها عمر بن أبي ربيعة فأقرت[٥٧] لها العرب بذلك، قال عنه جرير:"مازال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر" [٥٨] وشهد لـه الفرزدق بالتفوق في

غزله على جميع الشعراء فعندما سمع بعض غزله قال:"هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار، ووقع هذا عليه"[٥٩] .

وقال حماد الراوية عن شعره:" ذاك الفستق المقشر"[٦٠] وقال عنه أحد معاصريه "إن لشعر عمر بن أبي ربيعة لموقعاً في القلب، ومخالطة للنفس ولو كان شعر يسحر لكان شعره سحراً" [٦١] وقال ابن أبي عتيق:"لشعر عمر بن أبي ربيعة نوطة في القلب وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لشعر، وما عصي الله بشعر أكثر مما عصي بشعر عمر بن أبي ربيعة "[٦٢] ومع هذه الإجادة في غرض عمر الذي تخصص به وأخلص له وهذا الاعتراف من كثير من معاصريه بجودة شعره إلا أنه بقي دون الفحولة ودون أن يكون في مقدمة الطبقات .

وما ذلك فيما يبدو إلا بسبب تفوقه على غرض شعري واحد، وبعده عن المديح والهجاء "وكان الشاعر لا يشتهر في ذلك الحين إلا إذا مدح وهجا ورفع قبيلة وأسقط أخرى فتقاس فحولته بمقاس مدائحه و أهاجيه "[٦٣] ولعلهم كانوا يرون أن الشاعر الذي يقتصر على غرض معين يكون مملوكاً لذلك الغرض لا يستطيع مجاوزته إلى غيره فلا تجود قريحته إلا فيه فهو بذا لا يستحق مسمى شاعر لأن الشاعر الكامل هو من يمتلك الشعر في أي غرض كان وهنا تكون كل أغراض الشعر مستعبدة مملوكة له متى شاء فهو يمتلك الشعر أيّاً كان نوعه ويتصرف فيه بحسب مقتضيات الأحوال وهنا يستحق التقدم على الأقران ونيل المزية عليهم ولذلك اعتبر بعضهم أن ذا الرمة ربع شاعر لأنه لا يجيد إلا الوصف ونستطيع أن نقول مثل ذلك عمن لا يجيد إلا الغزل دون غيره أو الرثاء دون غيره وهلم جرا . ولذلك ترى النقاد إذا أرادوا وصف شاعر من أصحاب الغرض الواحد بالتفوق أو التقدم حددوه بذلك الغرض الواحد ولم يطلقوا القول في تقديمه روي عن أبي

علي القالي قوله :"ليس من شعراء الحجاز من يتقدم جميلاً وعمر في التشبيب "[٦٤] فحدد تقدمهما بالتشبيب وحده دون غيره . ويبدو أن الشاعر الذي يسيطر عليه غرض واحد ولا يستطيع غيره يعتبر ذا قدرة محدودة لا تستطيع تجاوز هذا الغرض الذي فرض نفسه عليه لظروف خاصة به كالحب أو الحزن أو غيرها من الدواعي والأسباب بينما الآخر عود نفسه ومرنا وحملها المصاعب في سبيل الشعر وفرّغ نفسه للشعر حتى أصبح مهنته وهدفه وحرفته التي لا يقدم عليها غيرها والتي عبر عنها الأعشى عندما قال :

وقيدني الشعرُ في بيتِهِ   كما قيّد الآسراتُ الحمارا

والتي عبر عنها الفرزدق عندما ذكر أنه استقى شعره من جلّة الشعراء السابقين له واطلع على شعرهم في مختلف أغراضهم وتوجهاتم الشعرية:

وهبَ القصائدَ لي النوابغُ إذْ مَضَوا   وأبو يزيد وذو القروحِ وجرولُ
والفحلُ علقمةُ الذي كانتْ له   حللُ الملوكِ كلامُهُ لاينحلُ
وأخو بني قيسٍ وهن قتلنَهُ   ومهلهلُ الشعراءِ ذاك الأولُ
و الأعشيان كلاهما و مرقشٌ   وأخو قضاعةَ قوله
وأخو بني أسدٍ عبيدٌ إذ مضى   يتمثلُ وأبو دؤاد قوله يتنحلُ
وابنا أبي سلمى زهيرٌ وابنُهُ   وابنُ الفريعة حين جد المقولُ
والجعفري وكانَ بشرٌ قبلَهُ   لي من قصائدِهِ الكتابُ المجملُ
ولقد ورثتُ لآل أوسٍ منطقاً   كالسم خالطَ جانبيهِ الحنظلُ
و الحارثي أخو الحماس ورثْتُهُ   صدعاً كما صدعَ الصفاةَ المعولُ
يصدعنَ ضاحيةَ الصفا عن متنها   ولهن من جبلي عمايةَ أثقلُ
دفعوا إلي كتابهن وصيةً   فورثتهن كأنهن الجندلُ[٦٥]

إن الفرزدق في الأبيات السابقة يشير إلى استفادته من أغلب الشعراء الذين سبقوه على اختلاف توجهاتم الشعرية وعلى مختلف أغراضهم بين مدح وهجاء وفخر ووصف وغيرها، وكأنه يقصد القول أن الشاعر لا يكون فحلاً بمنزلة فحولة الفرزدق إلا إذا ألم بمختلف أغراض الشعر وقرأ الموروث الشعري لمختلف شعرائه المشهورين، وكأنه هنا يؤيد الجانب المكتسب في الشعر الذي يتأتى من كثرة الممارسة و الاطلاع الواسع على شعر كل الشعراء الذين يستطيع الوصول إلى شعرهم مهما اختلفت مذاهبهم وطرائقهم في الشعر ومهما تعددت أغراضهم الشعرية وتنوعت .

ومن الملاحظ أن المتكسبين بشعرهم في أغلبهم من الفحول فالأعشى والنابغة وزهير وجرير والفرزدق والأخطل والحطيئة يعدّون فحولاً ويسمي الأصمعي هؤلاء الشعراء الذين بذلوا جهوداً كبيرة في تجويد شعرهم عبيد الشعر كزهير والحطيئة وقد غلب المدح والهجاء على هؤلاء الشعراء بالإضافة إلى أغراض أخرى كالوصف والفخر والغزل وبذلك استحقوا الفحولة التي هي أعلى درجات التقدم عند المفاضلة يقول الجاحظ " والشعراء عندهم أربع طبقات فأولهم : الفحل الخنذيذ،... ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المفلق ودون ذلك الشاعر فقط والرابع الشعرور ولذلك قال الأول في هجاء بعض الشعراء :

يا رابعَ الشعراءِ كيف هجوتني   وزعمتَ أني مفحَمٌ لا أنطقُ

فجعله سكيتا مخلفا ومسبوقا ومؤخراً " [٦٦]

بينما الذي يبذل في الشعر جهداً كبيراً حتى يصبح قادراً على التنقل بين أغراضه يصبح بهذا الجهد فحلاً لأنه قدر على الجمع بين الغرض ونقيضه يقول الجاحظ "ومن تكسب بشعره والتمس به صلات الأشراف والقادة، وجوائز الملوك والسادة في قصائد السماطين

وبالطوال التي تنشد يوم الحفل لم يجد بداً من صنيع زهير والحطيئة و أشباههما، فإذا قالوا في غير ذلك أخذوا عفو الكلام وتركوا الجهود ولم نرهم مع ذلك يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد في صناعة طوال الخطب، بل كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب، اقتداراً عليه، وثقة بحسن عادة الله عندهم فيه وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في معظم التدابير ومهمات الأمور ميثوه في صدورهم، وقيدوه على أنفسهم فإذا قومه الثقات وأدخل الكير وقام على الخلاص أبرزوه محككاً منقحاً ومصفى من الأدناس مهذباً "[67]

إن تعدد الأغراض له صلة كبيرة بالجهود الذي يبذله الشاعر ليصل في صنعته إلى أرقى الغايات وأرفع الدرجات، أما صاحب الغرض الواحد فهو من اكتفى بما تمليه عليه قريحته في الهم الذي ملأ نفسه وأجبره على البوح دون جهد ودون حظ من الصنعة والقصد والجهد المضني لذلك اعتبر الجاحظ أن الشعر صناعة وحدد له أوصافاً لا تأتي إلا بالقصد والجهد الكثير كتخير اللفظ وجودة السبك وكثرة الماء وتلاحم النسيج و الاعتماد على التصوير.

إن هذا الاقتدار على الشعر والتصرف فيه وامتلاكه والتنقل بين أغراضه لا يتأتى إلا بعد أن يبذل الشاعر جهداً كبيراً حتى يصبح عبداً للشعر كما يقول الأعشى :

وقيدني الشعرُ في بيتهِ   كمَا قيد الآسراتُ الحمارا

وهذا الاستعباد من الشعر يقابله استعباد آخر إذ يستعبد الشاعر الشعر ويقهره فيتنقل بين أغراضه كما يشاء يقول الجاحظ :"وكذلك كل من جود في جميع شعره ووقف عند كل بيت قاله، وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة .

وكان يقال لولا أن الشعر قد كان استبعدهم و استفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في

باب التكلف و أصحاب الصنعة، ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهواً ورهواً "[٦٨] .

إن بلوغ الشاعر مرحلة يجود فيها جميع شعره وتنتفي عنه العيوب لابد أنه بذل جهداً شاقاً حتى صار عبداً له فهي عبودية متبادلة يستفيد منها الشعر والشاعر فالشعر يصبح جيداً قليل العيوب، ويصبح الشاعر فحلاً مميزاً على غيره من الشعراء، وهؤلاء الشعراء هم الذين يخلدهم الزمن ويفخر بهم تاريخ الشعر، يقول شوقي ضيف :" إنما يذكر التاريخ النقاد والشعراء الممتازين الذين صبروا وصابروا وجاهدوا في التغلغل إلى أعماق النفس البشرية واستخرجوا ما فيها من أحاسيس ومشاعر، كل حسب بصيرته وحسب مارأى في عالم النفس وأطيافه"[٦٩] .

إنها إذاً عملية مصابرة ومجاهدة ومثابرة للوصول إلى قهر الشعر وامتلاكه توصل صاحبها للفحولة التي يكون بوجودها متميزاً على غيره من الشعراء تميزاً واضحاً وكبيراً .

إن التكسب بالشعر في مدح السادة والقادة والأشراف يفرض على الشاعر قدراً كبيراً من بذل الجهد ومعاودة المراجعة والاطلاع والعرض على أصحاب الخبرة الشعرية حتى لا يقع في تقصير يحرمه الجائزة أو يعرضه لشيء من الانتقاص، وبهذا الجهد والاهتمام والمعاودة يستطيع الشاعر أن يصل إلى قدر كبير من السيطرة على الشعر والتنقل في مختلف أغراضه ومن ثم الفحولة التي من شروطها القدرة على التنقل في جميع أغراض الشعر .

إن الشعراء الذين لا يحسنون إلا غرضاً واحداً ركنوا إلى الراحة وعدم التعب في سبيل الشعر واقتصروا على ما جاءهم من الشعر سهلاً طيعاً فرضه همهم المنحصر في شيء واحد كالحب العبثي اللاهي عند عمر بن أبي ربيعة والعذري عند جميل والحزن لفراق عزيز

عند الخنساء ولذلك فهناك صلة وثيقة بين الصنعة وتعدد الأغراض ومن ثم تأتي الفحولة من الصنعة وبذل الجهد، فكأن القيمة تأتي من التعمد والقصد باعتبار أن شاعر الأغراض المتعددة كابد مهمة الشعر وبذل فيها الجهد الكبير وحصل كل تقنيات صنعته ولم يقتصر على الموهبة التي ربما تقف به عند الغرض الذي يهمه وإنما أراد أن يستكمل كل ما يوصله إلى الفحولة ولذلك لابد أن يخوض مختلف الأغراض ولا يتأتى ذلك إلا بالمكابدة والتعب ولذلك يقول الحطيئة عندما سئل عن أشعر الشعراء " فحسبك والله بي عند رغبةٍ أو رهبةٍ، إذا رفعت إحدى رجلي على الأخرى ثم عويت عواء الفصيل في إثر القوافي" [٧٠].

وإذا كان لتعدد الأغراض وتنوعها قيمة كبيرة في تميز الشاعر على أقرانه، فإن بعض الأغراض أهم من غيرها في هذا الشأن ولعل المدح والهجاء يأتيان في مقدمة الأغراض الشعرية عند المفاضلة.

إن غرضي المدح والهجاء لهما القيمة الكبرى في المفاضلة بين الشعراء وهما الركنان الأهمان من أربعة أركان يعتمد عليها قبل غيرها في المفاضلة بين الشعراء وكسب التقدم والفحولة . أما الركنان الآخران فهما الوصف والفخر، وتأتي الأغراض الشعرية الأخرى بعدها في المكانة ولذلك قال البطين عندما سئل عن مكانة ذي الرمة بين الشعراء "أجمع العلماء بالشعر على أن الشعر وضع على أربعة أركان : مدح رافع أو هجاء واضع أو تشبيه مصيب أو فخر سامق"[٧١]

وتأتي أهمية المدح والهجاء من علاقتهما بالحياة الاجتماعية من حيث كون الشاعر الذي يجيدهما يرفع أقواماً ويخفض آخرين ولذلك يحسب لــه الناس ألف حساب . وكم من شاعر نال مكانته بين الناس لقدرته على المديح والهجاء ولذلك أدرك هذه الأهمية للمدح والهجاء الحطيئة فعندما منعه أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه – من هجاء الناس رد عليه

بقوله :

وأخذتَ أطرافَ الكلامِ فلم تَدعْ ذمّاً يضر ولا مديحاً ينفعُ

فالحطيئة يرى أن قيمته بين الناس تكمن في التخلية بينه وبين ما يجيده من المديح النافع والهجاء الضار وبهذا يخشاه الناس لمرارة هجائه ويقدره الآخرون لجودة مديحه فهو شاعر اتخذ الشعر حرفة يتكسب بها بين الناس ووضع في مقدمة أغراضه المدح والهجاء وعول عليهما وأجاد فيهما ولذلك قصة هجائه للزبرقان بدر معروفة وخاصة البيت المشهور

دع المكارمَ لاترحلْ لبغيتها واقعدْ فإنكَ أنتَ الطاعمُ الكاسي

الذي شكا منه الزبرقان بن بدر بمرارة إلى أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه- وشهد له حسان بن ثابت بأنه بيت موجع [٧٢] ولذلك يعترف الحطيئة بأن شعره يجود عند الطمع.

والطمع هو الدافع للمدح والهجاء فعن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال :" رأيت الحطيئة بذات عرق فقلت له :يا أبا مليكة، أي الناس أشعر؟ فأخرج لساناً دقيقاً كأنه لسان حية فقال هذا إذا طمع"[٧٣]

لقد أصبح الشعراء المادحون يشربون في أواني الذهب والفضة من عطايا الملوك وهباتم وجوائزهم وعلى رأس أولئك الأعشى والنابغة وحسان في الجاهلية .

إن صلة المديح والهجاء بالحياة الاجتماعية للناس من حيث كونه يرفع أقواماً فيعطيهم مكانة اجتماعية مرموقة يقدّرها الناس أو يخفض أقواماً فيجعلهم في الحضيض حتى من كانوا في واقع أمرهم كرماء محترمين، إن هذه الصلة بالحياة الاجتماعية للناس قد أعطت

الهجاء والمديح هذه المكانة الكبيرة بين أغراض الشعر وأوصلت من أجاد هذين الغرضين إلى سلم الفحولة والتقدم على الأقران .

لقد اعتبرت العرب كلمة الثناء الواردة في غرض المديح تاج عز يلبسه الممدوح فينال به المكانة الفضلى بين القبيلة وخارجها كما اعتبرت كلمة الذم الواردة في الهجاء مثلبة سيئة يلبسها المهجو فتلازمه طوال حياته وتبقى نيراً ثقيلاً يلازم أبناءه وأحفاده، ومن ثم كانت هذه القيمة الكبيرة للمدح والهجاء .

ولذلك قالوا عن الشعر " إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل مثلما يضع من قدر الشريف الكامل" [٧٤] وأنه " أسرى مروءة الدنيء وأدنى مروءة السري "[٧٥]

والمقصود بذلك المديح والهجاء، فالمديح أشهر عرابة الأوسي وأعلى مكانته بين الناس عندما مدحه الشماخ بن ضرار وقـد نزل به في سنة شديـدة فأعطاه وسق بعير تمراً فقال :

رأيتُ عرابةَ الأوسي يسمو إلى العلياءِ منقطعَ القرين
إذا ما رايةٌ رُفعـتْ لـمـجـدٍ تلقاهـا عُرابـةُ باليمـين

حتى صار ذلك مثلاً وأثراً باقياً، لاتبلى جدته، ولاتتغير بجنته"[٧٦].

ولقد رفع المديح أناساً خاملين ليس لهم في الناس قيمة ولا يأبه بم أحد " فممن رفعه ماقيل فيه من الشعر بعد الخمول : المحلق وذلك أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به وكانت للمحلق امرأة عاقلة ... فقالت لـه :إن الأعشى قدم وهو رجل مفوه مجدود الشعر، ما مدح أحد إلا رفعه ولا هجا أحداً إلا وضعه، وأنت كما علمت رجل خامل الذكر ذو بنات، وعندنا لقحة نعيش با فلو سبقت الناس إليه، فدعوته إلى الضيافة ونحرت

له، واحتلت لك فيما نشتري به شراباً يتعاطاه، لرجوت لك حسن العاقبة . فسبق إليه المحلق وأنزله ونحر لـه . ووجد المرأة قد خبزت خبزاً وأخرجت نحياً فيه سمن، وجاءت بوطب لبن، فلما أكل الأعشى وأصحابه وكان في عصابة قيسية قدم إليه الشراب واشتوى لـه من كبد الناقة وأطعمه من أطايبها فلما جرى فيه الشراب، وأخذت منه الكأس سأله عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه، وذكر البنات فقال الأعشى: كفيت أمرهن فأصبح بعكاظ ينشد قصيدته :

أرقتُ وما هذا السهادُ المؤرقُ وما بي من سقمٍ وما بي معشقُ

ورأى المحلق اجتماع الناس، فوقف يستمع، وهو لا يدري أين يريد الأعشى بقوله إلى أن سمع :

نفى الذم عن آل المحلق جفنة كجابيةِ الشيخِ العراقي تفهقُ
ترى القومَ فيها شارعين وبينهمْ مع القومِ ولدانٌ من النسلِ دردقُ
لعمري لقدْ لاحتْ عيونٌ كثيرةٌ إلى ضوء نار باليفاع تُحرقُ
تُشَب لمقرورين يصطليانها وبات على النارِ الندى والمحلقُ
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهِهِ كما زانَ متنَ الهندواني رونقُ

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون للمحلق يهنئونه والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته لمكان شعر الأعشى، ولم تمس واحدة منهن إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف "[٧٧] .

هذه قصة واحدة من قصص كثيرة عن دور المدح في رفع بعض الناس الخاملين وإعلاء مكانتهم الاجتماعية وقيمتهم بين الناس لأبيات من المدح قيلت فيهم، فكم من

خاملين رفعهم المدح وكم من بضاعة كاسدة روج لها وأنعش سوقها .

لقد أدرك قيمة المديح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد روي عنه رضي الله عنه أنه قال لبعض ولد هرم : أنشدني بعض ما قال فيكم زهير، فأنشده، فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن، فقال : يا أمير المؤمنين إنا كنا نعطيه فنجزل! فقال عمر رضي الله عنه : ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم "[٧٨] وهذا الدور المهم للمديح جعله مع نقيضه الهجاء أهم غرضين يحسب حسابهما في فحولة الشاعر وتقدمه، وإذا كان هذا دور المدح فالهجاء ليس بأقل أثراً من المديح فكم من عيون أبكاها وكم رفيع أخمله وكم من قبيلة فضحها.

قال الجاحظ :" ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء، وهذا من كرمها كما بكى مخارق بن شهاب وكما بكى علقمة بن علاثة وكما بكى عبد الله بن جدعان من بيت لخداش بن زهير"[٧٩]

والهجاء كما هو معلوم قد يحط الشرفاء من الناس عن أقدارهم فيخملون وتسقط قيمتهم بين الناس كما سقطت قبيلة بني نمير من بيت في الهجاء لجرير بن عطية وهو قوله :

فغُض الطرفَ إنكَ من نميرٍ   فلا كعباً بلغتَ ولاكلاباً[٨٠]

حتى أضحت قصة بني نمير مثلاً بين الناس . قال الشاعر:

وسوفَ يزيدكمُ ضِعةً هجائي   كما وضعَ الهجاءُ بني نميرِ[٨١]

وقال الآخر :

أتوعدني لتقتلني نميرٌ   متى قتلتْ نميرٌ من هجاها[٨٢]

والمعروف أن المدح والهجاء غرضان متضادّان باعتبار المدح ذكر الصفات الإيجابية

والمحبة في الممدوح والهجاء ذكر الصفات السلبية والمكروهة في المذموم فلعل مما يحسب للشاعر الذي يجيدهما معاً قدرته على الانتقال من النقيض إلى النقيض في شعره دون عناء وهو ما يدل على المهارة وحذق الصنعة ومن قدر عليهما معاً فهو لما سواهما من الأغراض أقدر . يقول قدامة بن جعفر " مما يجب تقديمه أيضاً أن منافضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين، بأن يصف شيئاً وصفاً حسناً ثم يذمه بعد ذلك ذماً حسناً بيناً غير منكر عليه ولا معيب من فعله، إذا أحسن المدح والذم، بل ذلك عندي يدل على قوة الشاعر في صناعته واقتداره عليها "[٨٣] .

ولعل هذا الاقتدار وإتقان الصنعة في المديح والهجاء من الأسباب التي جعلت لهما هذه المكانة الكبيرة عند النقاد القدماء .

إن لتعدد الأغراض وتنوع الفنون عند الشاعر قيمة كبيرة في رفع مكانته وقيمته الشعرية بين الناس مما يجعله في أرفع الطبقات وينال مكانة عظيمة عند النقاد حسبما هو المعتاد عند النقاد القدماء .

الحواشي والتعليقات

١. الأغاني– ٥٣/٨ .
٢. طبقات فحول الشعراء.
٣. طبقات فحول الشعراء - ٦٥/١ الهامش
٤. الشعر والشعراء – ٩٣/١
٥. الشعر والشعراء ٩٤/١

٦. الشعر والشعراء ٩٤/١

٧. العزهاة ، بكسر العين: العازف عن اللهو والنساء ، لا يطرب للهو ويبعد عنه.الموشح – صـ ٢٢٨

٨. الموشح صـ ٢٢٨

٩. الموشح صـ ٢٢٧

١٠. الموشح صـ ١٥٩

١١. الموشح صـ ١٦٠

١٢. الشعر والشعراء صـ ٤٦٦/١

١٣. الشعر والشعراء صـ ٤٦٦/١

١٤. الأغاني ١١٦/١

١٥. الشعر والشعراء ٤٦٦/١

١٦. ديوان الأعشى ـ صـ٢٣

١٧. طبقات فحول الشعراء ٦٥/١

١٨. الموشح ص ٦٢

١٩. فحولة الشعراء ص ١٢

٢٠. الموشح ص ٦٣

٢١. الموشح ص ٦٥

٢٢. الموشح ص ٦٥_ ٧٠

٢٣. الموشح ص٧١

٢٤. الأغاني ١٠٩/٩

٢٥. الأغاني ١١٢/٩

٢٦. الموشح ص ١٥٩

٢٧. نصوص النظرية النقدية عند العرب – ص ٢٣٢
٢٨. طبقات فحول الشعراء ص ٦٦
٢٩. طبقات فحول الشعراء ص ٦٦
٣٠. المرجع السابق ص ٦٦
٣١. جمهرة أشعار العرب ٣٠٢/١
٣٢. رسائل الانتقاد ص ٢٦
٣٣. ديوان الأعشى ص ١٠٢
٣٤. ديوان الأعشى ص٢١٠
٣٥. ديوان الأعشى ص٢٥٤
٣٦. ديوان الأعشى ص٢٦٦
٣٧. ديوان الأعشى ص٣٧٥
٣٨. ديوان الأعشى ص٣٩٦
٣٩. ديوان الأعشى ص٤١٤
٤٠. عناصر الإبداع في شعر الأعشى- ص ٣٦٦
٤١. ديوان الأعشى ص١٨١
٤٢. العمدة ص١٨٠/١
٤٣. شعر الأخطل صنعة السكري – ١٩٢/١
٤٤. التطور والتجديد في العصر الأموي ص ١٧٢
٤٥. التطور والتجديد في العصر الأموي ص ١٧٢
٤٦. الموشح ص١٩٣
٤٧. ديوان جرير ٨٧/١

٤٨. ديوان جرير ص١٥٠

٤٩. الأغاني ٢٨٨/٨

٥٠. دراسات في الشعر العربي– ١٣١/١

٥١. تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ٨٨

٥٢. الأغاني ٩٢/٨

٥٣. الأغاني ٩٧/٨

٥٤. ديوان جميل ص١٥

٥٥. ديوانه ص ١٢

٥٦. الأغاني ٧٤/١

٥٧. الأغاني ١٧٣/١

٥٨. الأغاني ٧٥/١

٥٩. الأغاني ٧٥/١

٦٠. الأغاني ١٠٧/١

٦١. الأغاني ١٠٨/١

٦٢. ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٥

٦٣. الأمالي ص ٧٧

٦٤. ديوان الفرزدق ص ٢١٣/٢

٦٥. البيان والتبيين -ص ٩/٢

٦٦. البيان والتبيين – ١٣/٢_١٤

٦٧. البيان والتبيين – ١٣/٢

٦٨. في النقد الأدبي – ص ١٤٨

٦٩. الشعر والشعراء ٣٢٦/١

٧٠. الموشح –ص ٢٢٧

٧١. الشعر والشعراء ٣٢٨/١

٧٢. الشعر والشعراء ٣٢٤/١

٧٣. العمدة ١٠٩/١

٧٤. العمدة ١١٠/١

٧٥. العمدة ١١١-١١٠/١

٧٦. العمدة ١٢٥/١

٧٧. الشعر والشعراء ١٤٤/١

٧٨. الحيوان ٣٦٤/١

٧٩. ديوان جرير ص٨٢١

٨٠. الحيوان ٣٦٤/١

٨١. الحيوان ٣٦٤/١

٨٢. نقد الشعر ص ٦٦

المراجـع

١ـ ابن رشـيق القيرواني ـ العمدة ـ تحقيق محمد قرقزان ـ دار المعرفـة ـ بـيروت ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٢ـ ابن شرف القيرواني ـ رسائل الانتقاد ـ تحقيق حسن حسني عبـد الوهـاب ـ دار الكتاب الجديد بيروت ط١ ـ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م.

٣ـ ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء ـ تحقيق أحمد شاكر ـ دار المعارف ـ مصر.

٤ـ أبو علي القالي ـ الأمالي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨م

٥ ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ الأغاني ـ مصور عن طبعة دار الكتب.

٦ـ إحسان عباس ـ تاريخ النقد الأدبي عند العرب ـ الطبعة الخامسة ـ ١٤٠٦

٧ـ الأخطل ـ شعر الأخطل صنعة السكري ـ تحقيق د/ فخر الدين قباوة ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت

٨ـ الأعشى ديوانه ـ ـ تحقيق د/ محمد أحمد قاسم ـ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م بيروت

٩ـ الجاحظ ـ ١ـ البيان والتبيين ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار الفكر ـ بيروت ط٤

٢ ـ الحيوان ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت

١٠ـ جرير ديوانه ـ بشرح محمد بن رجب ـ تحقيق د/ نعمان محمد أمـين طـه ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٣

١١ـ جميل ديوانه ـ تحقيق د/ حسين نصار ـ دار مصر للطباعة.

١٢ـ شوقي ضيف ١ ـ التطور والتجديد ـ الطبعة الخامسة ـ دار المعارف

٢ ـ في النقد الأدبي ـ الطبعة الخامسة ـ دار المعارف ١٩٦٢

١٣ـ عباس بيومي عجلان ـ عناصر الإبداع في شعر الأعشى ـ دار المعرفة الجامعية ـ مصر ١٩٨٩م

١٤ـ عمر بن أبي ربيعة ـ ديوانه ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٤٠٤هـ

١٥ـ ـ الفرزدق ـ ديوانه ـ بشرح مجيد طراد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٤١٢هـ ١٩٩٢م

١٦ـ محمد بن سلام الجمحي ـ طبقات فحول الشعراء ـ تحقيق محمود شاكر ـ مطبعة دار المدني ـ القاهرة

١٧ـ محمد مصطفى هدارة ـ دراسات في الشعر العربي ـ دار المعرفة الجامعية ـ ١٩٨٢م

١٨ـ المرزباني ـ الموشح ـ تحقيق محمد علي البجاوي ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة.

١٩ـ وليد قصاب ـ نصوص النظرية النقدية عند العرب ـ المكتبة الحديثة ـ الإمارات